مركز نماء للبحوث والدراسات
Namaa Center for Research and Studies

namacenter

أوراق نماء

منهجية الإصلاح عند الدكتور طه عبد الرحمن

زكريا عريف

منهجية الإصلاح عند الدكتور طه عبد الرحمن

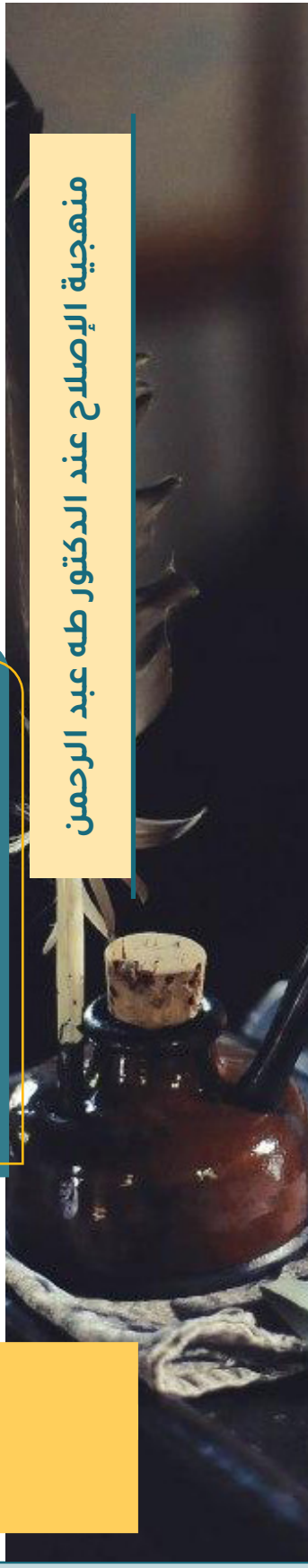

الدكتور طه عبد الرحمن[1]

✸ ملخص تنفيذي:

يعرف السياق المغاربي ثراءً في الجهود الإصلاحية الجماعية والمؤسساتية والفردية التي تحتاج إلى سبر أغوارها المعرفية والمنهجية، في هذا الإطار يتغيى هذا البحث تسليط الضوء على أحد المشاريع البارزة في المجال التداولي المغاربي، يتعلق الأمر بالمشروع الفلسفي والفكري للفيلسوف المغربي طه عبد الرحمن. ويروم هذا البحث أساسًا الإجابة عن إشكال رئيس، هو: ما منطلقات الإصلاح الثاوية في فكر طه عبد الرحمن؟، أي إنه بحث في الأسس والمقومات المنهجية المؤسسة لمجموع نتاجه المعرفي، لا ينشغل البحث بمدارسة أفكاره الجديدة ومدى مشروعيتها وإبداعيتها بقدر ما يسائل المنهج الذي اعتمده طه وأصوله الابستملوجية.

إن الفيلسوف طه عبد الرحمن قد شغل المجال التداولي العربي الإسلامي عمومًا والمجال المغاربي خصوصًا احتفاء ونقدًا[2]؛ بحيث تتجاذب مشروعه المعرفي مقاربات ثلاث على

(١) زكرياء عريف، طالب باحث بتكوين الدكتوراه: تفسير الخطاب الشرعي، قضايا ومناهج، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، المملكة المغربية.

(٢)يتزايد الاهتمام بمشروع طه عبد الرحمن في السياق العربي الإسلامي، مع تسجيل عناية معتبرة بمنجزه الفكري من لدن الباحثين المغاربيين وعلى الخصوص في بلدان المغرب والجزائر وتونس.

الأقل: الأولى احتفائية، والثانية نقدية جذرية، والثالثة وسطية تمتاز بالنقد المعرفي غير المتحيز. وبالنظر إلى هذا التراكم الحاصل بصدد مشروع طه عبد الرحمن فإن البحث في "المنهجية الناظمة" لهذا المشروع يصبح آكد وأكثر إلحاحًا؛ لذلك سنقارب هذا الموضوع بحسب الخطة الآتية:

أولاً: مشروع طه عبد الرحمن بين النقد والتأسيس.
ثانيًا: الأسس المنهجية لفكر الدكتور طه عبد الرحمن.
ثالثًا: مشروع طه عبد الرحمن بين الاحتفاء والنقد.

✸ أولاً: مشروع طه عبد الرحمن بين النقد والتأسيس:

يغلب على الكثير من المشاريع الفكرية المعاصرة طابع النقد؛ إذ تكتفي بالاعتراض والتفكيك والنقد بدل أن تتجاوز ذلك إلى التأسيس النظري الذي يقدم الرؤى والتصورات الإصلاحية البديلة. في هذا الإطار نتساءل، المشروع الذي نحن بصدده -أي المشروع المعرفي للدكتور طه عبد الرحمن- أمشروع إصلاحي بنائي تأسيسي، أم إنه مجرد مشروع انتقادي لا يقدم أي رؤية إصلاحية تقويمية للواقع المعاصر بمداخله المتعددة، ويكتفي بالمقاربة النقدية الاعتراضية؟

إن الناظر في المشروع الفكري للدكتور طه عبد الرحمن يتلمس الآلية المزدوجة التي ينبني عليها متنه، بحيث يمكن القول إنه يعتمد في بنائه الفكري على ثنائية النقد وتأسيس البديل. بناءً على هذا الاعتبار فإن مشروعه إصلاحي يروم تغيير الواقع بأبعاده المركبة؛ لأنه يغلب عليه كما يقول عالم المنطق حمو النقاري: «الهم الانتقادي من جهة، والتنظيري من جهة ثانية»[1]، وبما أن الإصلاح كما يرى عبد الاله بلقزيز هو «تصويب ما اعوجّ في مسار، أو تآكل في قوام، وتجديد له، بحيث يطابق الأصل الذي منه انحدر، إنه إعادة ترميم لنظام المجتمع

(١) محمد البغوري، حوار مع عالم المنطق حمو النقاري حول قضايا التراث والمنهج والتصوف، مجلة أفكار، العدد ١٠، أكتوبر/ نونبر ٢٠١٦، ص١٢٢.

أو الثقافة أو سوى ذلك»[1]، فإن طه عبد الرحمن يدافع عن مشروع إصلاحي يروم ترميم نظام المجتمع وإصلاح ثقافته وفكره؛ بحيث إنه ينتقد جملة التصورات والإشكالات السائدة المعيقة للنهوض والتغيير الحضاري من قبيل: آفات التقليد والتبعية والتسيد... ويقدم في المقابل منظوره الإصلاحي الأخلاقي البديل. وهكذا نلفي أن هذه الثنائية حاضرة بقوة في مجموع إنتاجه المعرفي[2]. بالإضافة إلى ذلك، فإن مشروعه الإصلاحي كلي مستوعب لفكرة الإصلاح بأفقها الشمولي، وذلك نظرًا لطبيعته المتميزة ببعدها المنهجي، وانطلاقًا من هذا النسق المنهجي يقدم حلولًا وتصورات لإشكالات معرفية سائدة في المجال التداولي العربي الإسلامي في مجالات الفكر والفلسفة والعلم والتربية والدين والسياسة.[3]

✸ ثانيًا: الأسس المنهجية لفكر الدكتور طه عبد الرحمن:

إن الناظر في النسق المعرفي لمشروع الدكتور طه عبد الرحمن وأصوله الابستمولوجية يتلمس جملة من الأسس المنهجية التي يعتمدها طه لتأسيس مشروعه الفكري؛ إذ تشكّل هذه الأسس/المقومات نسقًا منهجيًّا ناظمًا متكاملًا يقارب من خلاله هذا الفيلسوف القضايا والإشكالات الفكرية الراهنة، وهذا يدل على أن مسألة المنهج لها أولوية قصوى عند صاحب كتاب: «سؤال المنهج: في أفق التأسيس لأنموذج فكري جديد»؛ إذ يمكن القول إن مشروعه منهجي بالدرجة الأولى، فالسؤال الشاغل للدكتور طه عبد الرحمن هو: «ما الشرائط المنطقية والمقتضيات المنهجية لإنشاء

(١) عبد الإله بلقزيز، أسئلة الفكر العربي المعاصر، سلسلة المعرفة للجميع، العدد ٢١، ص١٣ و١٤.

(٢) في كتاب روح الحداثة مثلًا ينتقد طه عبد الرحمن الحداثة الغربية، ويقدم بديلًا منها وهو الحداثة الإسلامية المنبثقة من الأخلاق الإسلامية الكونية، أما في كتاب روح الدين فإن طه ينتقد الأنموذج العلماني المضيق للوجود الإنساني، ويقترح أنموذجًا آخر هو الأنموذج الائتماني.

(٣) ليس غرضنا في هذا البحث تسليط الضوء على إسهاماته الإصلاحية في هذه المجالات بقدر ما نهتم بدراسة منهجه الإصلاحي، لكن نشير إلى أن تمظهرات هذا المنهج (الأخلاقي الائتماني) تتجلى في مقاربته للعديد من القضايا التي تشمل حقول العلم والفلسفة والدين والأخلاق والتربية والسياسة.

قولنا المبدع مع الحفاظ على استقلالنا التداولي؟»[1]. ووفق هذا المنهج يشتغل طه عبد الرحمن على القضايا الإشكالية التي يطرحها السياق المعاصر، وذلك بخلاف مشاريع أخرى يغلب عليها التنظير دون التأسيس المنهجي اللازم الكفيل بالتجديد والإصلاح الفعلي؛ لأن «التحول التجديدي لا يتم إلا بتحول في منهج التفكير»[2]. ونستعرض في هذه الورقة أهم هذه الأسس، وهي كالآتي:

الأخلاقية: يؤسس طه منهجه على المرجعية الأخلاقية؛ إذ يرفع شعار «الأخلاق هي الحل» باعتبار أن الإنسان كائن أخلاقي، وبالتالي فالإطار المرجعي المؤسس للتصورات والأفكار الإنسانية هي الأخلاق. لكن ما الأخلاق المقصودة في هذا السياق؟ أأخلاق دينية خصوصية أم أخلاق وضعية عالمية؟، وإذا كانت دينية ألا يحيل ذلك إلى نوع من الماضوية والانغلاقية في سياق كوني يسعى إلى أخلاق عالمية موحدة؟ لكن طه يجيب عن هذا الإشكال من خلال دفاعه عن الأخلاق الإسلامية منطقيًّا بمقتضى «دليل الزمن الأخلاقي»، فلئن كانت بداية التاريخ الإنساني مقترنة ببداية نزول الشرائع الإلهية التي تضبط السلوك الاجتماعي للناس وتحقق وجودهم الحضاري، فإن هذه الأطوار التاريخية تؤطرها أزمنة أخلاقية دينية تختلف باختلاف الشرائع وصولًا إلى الزمن الأخلاقي الإسلامي الذي يعلو على جميع الأزمنة الأخلاقية باعتبار أنه الدين الخاتم، معنى ذلك بحسب طه هو أن: «التخلق الإنساني يتجه إلى تحقيق الكمال الإنساني وأن التقلب في الأطوار يتقدم بهذا التخلق إلى هذه الغاية، وهي لا تتحقق إلا في الزمن الأخلاقي الإسلامي وحده»[3].

الائتمانية[4]: يدافع طه عما يسميه بـ«نظرية الوحدة الأصلية

(١) طه عبد الرحمن، سؤال المنهج في أفق التأسيس لأنموذج فكري جديد، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، جمع وتقديم رضوان مرحوم، بيروت، ط١، ٢٠١٥، ص١٦.
(٢) الطيب بوعزة، التجديد وسؤال المنهج، مجلة الإحياء، الرابطة المحمدية للعلماء، العدد المزدوج: ٣٩-٤٠، دجنبر ٢٠١٣، ص١٢٠.
(٣) طه عبد الرحمن، روح الحداثة: المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط٢، ٢٠٠٩، ص ٨٨.
(٤) تدور أغلب كتبه الأخيرة حول هذا المفهوم، وفي مقدمتها كتب: روح الدين، دين الحياء، سؤال العنف، ثغور المرابطة.

بين الدين والسياسة[1]» التي تأخذ بمسلمة «تعدية الوجود الإنساني»: فالإنسان وفق هذا المنظور يحيا في عوالم متعددة ويتجاوز البعد الواحد إلى أبعاد أخرى متداخلة، في مقدمتها البعد الغيبي المحدد لماهية الإنسان الأخلاقية انطلاقًا من الأمانة التي عرضها الحق عز وجل على عباده في العرض الغيبي العظيم «الذي ابتلى به الحق سبحانه وتعالى مخلوقاته كلها، إذ عرض عليها حمل الأمانة[2] فأبت هذه الكائنات حيها وجامدها حملها، إشفاقًا منها، في حين اختار الإنسان حملها، غير مقدر لثقلها ولا متصور لتبعاتها»[3].

التكاملية: يظهر هذا المنهج جليًّا في مقاربته للمعرفة التراثية: إذ ينتصر للبحث المنهجي من خلال رصد الآليات المنتجة للتراث بتجلياته المختلفة بدل الاستغراق في الجانب المضموني، بمعنى أن شغله الشاغل هو سؤال الكيف لا سؤال الكم، كما أنه لا يفاضل بين هذه المعارف ويختزلها في أفق معرفي واحد بل يأخذ بنظرة تكاملية -كما يقول- تجمع بين المضامين والآليات؛ بحيث إن «التقويم الذي يتولى استكشاف الآليات التي تأصلت وتفرعت بها مضامين التراث كما يتولى استعمالها في نقد هذه المضامين، يصير لا محالة إلى الأخذ بنظرة تكاملية في التراث»[4].

التأصيل: ينفتح طه عبد الرحمن على مختلف المستجدات المنهجية والعلمية الحديثة، لكن شرط تأصيلها أو تقريبها إلى المجال التداولي العربي الإسلامي؛ إذ يرفض إسقاط المفاهيم والآليات المنقولة على المفاهيم والآليات الإسلامية المأصولة، ووضع في هذا الصدد قاعدتين منهجيتين نقديتين في نقد المناهج الغربية وتبيئتها، الأولى هي: «كل أمر منقول معترض

(١) أو الوحدة الأصلية بين التدبير والتعبد.

(٢) مصداقًا لقوله تعالى: «إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلومًا جهولًا» (الآية ٧٢، سورة الأحزاب).

(٣) طه عبد الرحمن، روح الدين من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠١٢، ص٤٤٨ وما بعدها.

(٤) طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٢، ص١٥.

عليه، حتى تثبت بالدليل صحته»، والثانية هي: «كل أمر مأصول مسلم به، حتى يثبت بالدليل فساده»[1].

التداخلية: يرى طه عبد الرحمن أن التراث العربي الإسلامي متداخل منهجيًّا مع مختلف المعارف والعلوم المأصولة والمنقولة؛ إذ تشترك معارفه باختلاف شعبها ومجالاتها في «الآليات التي أُنشِئت ونقلت بها مضامينها»[2]، وبناءً على هذا الاشتراك فإن المفكر طه عبد الرحمن لا يفاضل بين دوائر التراث برهانًا وبيانًا وعرفانًا؛ إذ يشتغل بكلية التراث الإسلامي العربي بجميع تجلياته من غير استبعاد أو حذف أو استثناء، وهذا ما يتجلى في عنايته بالتصوف وفلسفة اللغة والمنطق والفلسفة وغيرها من المعارف التراثية.

التداولية: تتميز الثقافة والتراث العربي الإسلامي بخاصية منهجية هي التداولية، ومقتضى التداول بحسب طه هو «أن الشعب الثقافية الثلاث للتراث، وهي: «العقيدة» و«اللغة» و«المعرفة»، لا تستقيم على أصول التراث الإسلامي العربي حتى يتحقق العمل بها وفق ما ينفع الغير، فضلًا عن نفع الذات، ووفق ما ينفع الآجل، فضلًا عن نفع العاجل»[3]، معنى ذلك أن الخاصية المميزة للتراث هو أنه تراث عملي لا نظري، عقيدة ومعرفة ولغة فهذه الدوائر الثلاث يجب أن تفضي إلى الممارسة التطبيقية وتحقيق النفع والصلاح الإنساني في العاجل والآجل، وهذا الأمر هو ما سعى لكشفه بشكل مفصل في كتابه: «سؤال العمل بحث في الأصول العملية في الفكر والعلم»[4].

التأسيس المنطقي: يسلك طه عبد الرحمن مسلكًا مغايرًا في الكتابة الفكرية والفلسفية المعاصرة يروم «إخراج

(١) طه عبد الرحمن، روح الحداثة المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٢، ٢٠٠٩، ص١٣ وما بعدها.
(٢) سؤال المنهج، مرجع سابق، ص٩٢.
(٣) سؤال المنهج، ص٨٦.
(٤) المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب، ط١، ٢٠١٢.

الخطاب الإسلامي من مسلك الوعظ والإرشاد، أو قل «المسلك الإخباري» إلى مسلك النظر والنقد أو قل «المسلك الاستدلالي»[1]؛ بحيث يعتمد في هذا النمط من الكتابة على الأنساق المنطقية الحديثة بالدرجة الأولى، وذلك لقناعته الراسخة بأن إقامة الفكر الإسلامي الجديد لا يتم دون تأطير وتنظيم خطابنا الإصلاحي بأحدث وأقوى «المناهج العقلية وأقدرها على مدنا بأسباب الإنتاج الفكري»[2]، وفي مقدمة هذه المناهج المنطق، فقد «أحدث طه انقلابًا منهجيًّا في الفكر العربي الحديث، بناءً على منجزات الثورة المنطقية واللغوية في العالم المعاصر؛ بإبداعه لكتابة منطقية أصيلة تربط المضامين الفكرية بآلياتها، وتجعلنا نفهم اشتغال هذه الآليات في حيويتها داخل الظاهرات الفكرية»[3].

الاتصالية: يقرر طه أن الاتصال هو الأصل، بمعنى أن العقل الإنساني متصل بأبعاد متعددة كالدين والوجود واللغة والواقع، وليس منفصلًا عن هذه الأبعاد الكلية؛ وبالتالي فمن منظوره ليس هنالك تصادم بين هذه المكونات بل ثمة تكامل وانسجام. لذلك يحفل منجزه بهذا البعد الاتصالي التداخلي على مستويات أربعة على الأقل، وهي: الاتصال بالتراث لأن استدعاء التراث -روحًا وقيمًا ومنهجًا أساسًا- مهم من جانبين: أولًا: إمداد الإنسان بالبعد الهوياتي والثقافي، وثانيًا منحه الاستعدادات المؤهلة للإبداع والعطاء[4].

والاتصال بالمنقول الفلسفي والاتصال بالأفق الروحي بناءً على مقتضى الوجود الإنساني المتعدي المتصل بعالم الغيب،

(١) طه عبد الرحمن، تعقيب على قراءة كتاب الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، مجلة الفرقان، الدار البيضاء ع٥٧، ٢٠٠٧، ص ٨٩.

(٢) طه عبد الرحمن، العمل الديني وتجديد العقل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٤، ٢٠٠٩، ص١٠.

(٣)عباس أرحيلة، فيلسوف في المواجهة قراءة في فكر طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠١٣، ص ٢٦.

(٤) ينظر: طه عبد الرحمن، الحوار أفقًا للفكر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط١، ٢٠١٣، ص١٣١.

هـذا الاتصـال الـذي يتحقـق بمـا يسـميه طـه العمـل التزكـوي أو العمـل الديني الـذي ينقـل الإنسـان مـن ضيـق عالـم المُلـك إلى سعة عالم الملكوت ثم رابعًا الاتصال بالمأصول الديني الأخلاقي؛ فالرؤيـة التي يدافـع عنهـا طـه هـي حتميـة الاتصـال بالمرجعيـة الدينيـة الأخلاقيـة، يعني ذلـك أن الديـن ليـس شـيئًا ثانويًّا فـي منهج طه الإصلاحي، بل إنه روح هذا المشروع وجوهره، وإذا كان الهدف من الإصلاح هو الإنسان فإنه «لا إنسان بغير دين، مما يجوز معه أن تعرف الإنسان بأنه الكائن الحي المتدين، فالهوية الإنسـانية تكـون فـي حقيقتهـا هويـة دينيـة»[١].

الحوارية: يتميز فكر طه بالطابع الحواري تنظيرًا وممارسة[٢]، إذ إنه لا يكتفي في مجمل منجزه المعرفي بالرد على الاعتراضات فقـط، بـل يفترضهـا منتقـدًا إياهـا كذلـك «فهـو لا يكـف عـن استحضار أو افتراض المخاطب، كما لا يكف عن تقديم الدليل وافتراض الاعتراض وسد مكامن دعاوى المعترض»[٣]، وأهمية هـذا المقـوم المنهجي بالنسـبة إليه تكمـن في التعـاون للوصـول إلى الحقيقـة لأن الحـوار «يسـهم فـي توسـيع العقـل وتعميـق مداركـه بمـا لا يوسـعه ولا يعمقـه النظـر الـذي لا حـوار معـه؛ إذ الحـوار هـو بمنزلـة نظـر مـن جانبيـن اثنيـن»[٤].

العرفانيـة الصوفيـة: لا يخفـى علـى أحـد أن طـه عبـد الرحمـن يمتـح مـن التصـوف مجموعـة من المفاهيم والتصورات؛ لأنه يعتبر التصـوف أو التجربـة الحيـة أو التجربـة الإيمانيـة منطلقًـا منهجيًّـا مهمًـا ومحوريًّا لتعميـق الفكـر والنظـر والرقي بالعقلانية إلى أعلى

(١) طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٠، ص١٤٩.

(٢) يتجلى هذا التنظير في العديد من كتبه المهمة مثل كتاب «في أصول الحوار وتجديد علم الكلام»، وكتبه ذات الصبغة الحوارية على غرار: «الحوار أفقًا للفكر» و«حوارات من أجل المستقبل».

(٣) إبراهيم مشروح، طه عبد الرحمن قراءة في مشروعه الفكري، سلسلة أعلام الفكر والإصلاح في العالم الإسلامي، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ع١٢، ط١، ٢٠٠٩، ص٥٤.

(٤) طه عبد الرحمن، حوارات من أجل المستقبل، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط١، ٢٠١١، ص٩٠.

مراتبها الممكنة، وبالتالي تحقيق اليقظة أو الإصلاح المأمول ذاتيًّا وجماعيًّا، ولا يكتفي طه بالدعوة إلى ممارسة التصوف، بل يمارسه فعلًا ويدافع عنه نظريًّا، وهذا ما يثبته في كتابه التأسيسي: «العمل الديني وتجديد العقل»؛ إذ يقول فيه: «لقد دخلنا في تجربة إيمانية عميقة بدلت أحوالنا وأوصافنا، ووسعت آفاق مداركنا ومشاعرنا، وأيقظت فينا أسباب المواظبة على العمل ودواعي الألفة والمحبة للخلق»[1]، لذلك فإن المعجم الصوفي له حضور معتبر في إنتاجه الفكري والفلسفي.

✸ ثالثًا: مشروع طه عبد الرحمن بين الاحتفاء والنقد:

نعاين اهتمامًا متزايدًا بمتن الفيلسوف المغربي طه عبد الرحمن على المستويات الأكاديمية والثقافية والبحثية كافة، بعدما كان مشروعه يُواجه لردح من الزمن بالصمت والإقصاء، ويمكن القول إن مشروعه اليوم تتجاذبه ثلاث مقاربات على الأقل: الأولى احتفائية، والثانية نقدية جذرية، أما الثالثة فهي مقاربة وسطية تمتاز -في تقديرنا- بالنقد المعرفي غير المتحيز. لكن السؤال الذي سنحاول الإجابة عنه في هذا المحور هو: آلتزم بالنقد المنهجي النقد الذي وُوجه به مشروع طه عبد الرحمن أم إنه استغرق في نقد التصورات والأفكار التي ما هي إلا تجليات وتمظهرات لهذا المنهج؟، إذن هذه الاعتراضات أتجزيئية تدور في نطاق الأفكار، أم إنها تكاملية تروم نقد المنهج التأسيسي بغض النظر عن سلامتها وموضوعيتها؟[2] سنبدأ أولًا بتصنيف المقاربات التي ذكرناها سلفًا، وهي:

المقاربة الاحتفائية: يشتغل تيار مهم من الباحثين على مشروع الدكتور طه عبد الرحمن يندرجون ضمن ما يسميه

(١) طه عبد الرحمن، العمل الدينى وتجديد العقل، مرجع سابق، ص١١.
(٢) ليس من غايتنا مناقشة هذه الأفكار وإبداء موقفنا بخصوصها قبولًا أو اعتراضًا، ما يهمنا منها هو ما مدى التزامها بنقد منهج طه عبد الرحمن في تأسيس تصوره المعرفي الإصلاحي.

الباحث «رضوان مرحوم» «مدرسة الرباط» التي أسسها طه عبد الرحمن[1]، وهي مدرسة «أخذ صيتها ينتشر خارج المغرب بعد أن تجاوزت طور التأسيس ومراحل التشكل الأولى، ودخلت طور الإنتاج والعطاء من خلال دراسات رائدة ومتميزة في رسائل «الماجستير» وأطروحات «الدكتوراه» في الجامعات المغربية والجزائرية على وجه الخصوص، والكثير من المؤسسات الأكاديمية في أرجاء العالم العربي، فضلًا عن الجمهور الواسع من الطلبة الباحثين الذين يعبرون في المنتديات الدولية والمحافل الثقافية عن تبنيهم لأفكارها»[2]. وفضلًا عن هذا الاهتمام الفردي نسجل اهتمامًا مؤسساتيًّا متزايدًا بهذا المشروع من لدن الجامعات[3] ومراكز البحث العلمي مغربيًّا وعربيًّا[4] في شعب الفلسفة والدراسات الإسلامية والدينية، لكن هذا الاهتمام يحتاج إلى مأسسة كما يؤكد على ذلك الباحث منتصر حمادة، بمعنى أن ينتقل هذا الاهتمام من جهود فردية مشتتة إلى احتضان مؤسساتي يستثمر مشروع طه وأدواته المنهجية والمعرفية في سياق الإصلاح الإسلامي المعاصر؛ إذ إلى الآن «لا توجد مؤسسة تبنت أعماله وتفرغت لها»[5].

المقاربة النقدية الجذرية: التفاعل مع فكر طه ليس احتفائيًّا دائمًا، بل هنالك من يذهب بعيدًا في نقد هذا المشروع، والنقد

(١) من بين تلاميذها: حمو النقاري عالم المنطق المغربي، رضوان مرحوم، عباس أرحيلة، إبراهيم مشروح، مصطفى المرابط، وقد كانت نواتها الأولى هي: منتدى الحكمة للمفكرين والباحثين المغاربة الذى كان يرأسه الفيلسوف طه عبد الرحمن.

(٢) سؤال المنهج، مرجع سابق، ص١٣.

(٣) نظمت مجموعة من المؤتمرات الدولية احتفاء بفكر طه عبد الرحمن في كل من كليات الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير (٢٠١٤) ومراكش (٢٠١٥) والجديدة (٢٠١٦)، كما احتفى الملتقى العلمي الثالث حول موضوع العلوم الإسلامية وسؤال التجديد بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ببنى ملال بجهود طه عبد الرحمن فى تجديد العلم والفكر (٢٠١٨).

(٤) نظم مركز التشريع الإسلامي والأخلاق بقطر حلقة نقاشية بمشاركة باحثين عرب وأجانب حول موضوع: «الأخلاق الإسلامية والنقد الائتماني: مقاربات متعددة» (١٥ أكتوبر ٢٠١٨)، كما افتتح مركز مغارب للدراسات في الاجتماع الإنساني موسمه العلمي لسنة ٢٠١٩ بندوة علمية بعنوان: «القراءة الائتمانية للفعل السياسي» بتاريخ ٢٠ فبراير ٢٠١٩ بمشاركة طه عبد الرحمن وباحثين آخرين، كما تم توقيع كتابه الأخير «ثغور المرابطة: مقاربات ائتمانية لصراعات الأمة الحالية» الصادر عن المركز نفسه.

(٥) منتصر حمادة، مأسسة أعمال المنجرة والجابري وطه، موقع الدار: www. Aldar.ma.

مطلوب دائمًا لأنه لا يتصور بناء معرفي رصين بدون ممارسة نقدية بناءة. لكن السؤال المطروح في هذا السياق هو: هذا النقد أمعرفي أم فكراني أيدلوجي؟، مضموني يستغرق في نقد الأفكار الجزئية أم يروم نقد ومساءلة المنهج الذي أنتج هذا الفكر في حد ذاته؟ الملاحظ أن أغلب الانتقادات كانت مضمونية، ومن بين من وقع في هذا النقد المضموني الباحث التونسي قاسم شعيب الذي آخذ على طه عبد الرحمن تبنيه ودفاعه عن الحداثة رغم أزمتها البنيوية؛ لأنها قائمة -في نظره- على أسس مناقضة للمنظومة القيمية الإسلامية مثل الفردانية والحرية المفرطة والعقلانية المجردة، وهذه كلها «تداعيات لحداثة عرجاء جعلت الإنسان الحديث يعيش الغربة وسط الاكتظاظ، والغياب بين الحضور، والحرمان وسط الإغراء. وهكذا جنت الحداثة على الإنسان عندما جاءت التقنية لتوهم الإنسان بحياة الرفاه والمتعة، ولتجعل الاستهلاك معيارًا للقيمة»[1]، لكن طه نفسه ينتقد الحداثة الغربية ومسلماتها التطبيقية المتمثلة في مبادئ العقلانية والحرية والفردانية، ويقترح مبادئ مفارقة لها وهي مبادئ النقد والرشد والشمول ذات الأفق الكوني، وبالتالي فإن قاسم شعيب حاكم مقاربة طه للحداثة على ضوء مبادئها الغربية، وليس انطلاقًا من المبادئ التي قررها هو نفسه، فالعقلانية مثلًا بناء على مبادئ روح الحداثة تختلف باختلاف السياقات الثقافية والنماذج المعرفية فهي عقلانيات، وليست عقلانية واحدة» لم تختص بها الحداثة الغربية كما يزعم، ولا لها شكل واحد ولا لها مرتبة واحدة، بل إنها ظلت تطبع كل يقظة حضارية تحقق بها الإنسان على مدى تاريخه الطويل، أما تخصيص الحداثة بها، فهو خطأ ناتج عن التقديس الذي أحاطه بها بعضهم، جاعلًا مدارها على فتوحات العقل وحده»[2].

ولعل من بين الرؤى النقدية الأخرى التي اعترضت على مشروع طه عبد الرحمن كلية بعيدًا عن المنهجية العلمية التي تقتضي مساءلته موضوعيًّا بعيدًا عن التحيزات الذاتية والفكرانية،

(١) قاسم شعيب، فتنة الحداثة صورة الإسلام لدى الوضعيين العرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠١٣، ص٢٥.

(٢) روح الحداثة، مرجع سابق، ص٢٥.

نلفي انتقاد اعتماده على التصوف كأساس منهجي لمشروعه الإصلاحي، وهو ما يسميه عباس أرحيلة «محاولة إقبار مشروعه في التصوف» من قبل السلفيين من جهة والحداثيين من جهة ثانية، «فقد انتقد عقلانيو السبعينيات طه عبد الرحمن حينما وجدوه متصوفًا، وحاربته السلفية قبل أن تسير في ركاب التصوف ضمن الاحتفالية بالشأن الديني»[1]. ولئن كان هؤلاء انتقدوا المنهج الذي يؤسس عليه طه مشروعه أو جزءًا منه على الأقل؛ فنسجل أن مقارباتهم النقدية هاته قد تعسفت في نقد هذا المشروع واختزاله في خانة الدفاع عن التصوف إلى درجة أن الباحث السعودي «إبراهيم السكران» يرى أن كتاب «روح الدين» يؤسس لما يسميه «التصوف السياسي» وهدفه هو «جذب قواعد الحركات الإسلامية باتجاه نموذج ديني يبعدهم عن المزاحمة السياسية التي تخلق التوترات مع الدولة العربية الحديثة والنخب العلمانية»[2]، في حين أن طه عبد الرحمن يقدم مقاربة روحية بديلة للإصلاح السياسي تمتح من أسس منهجية متعددة منها الجانب الصوفي، وليست صوفية إجمالًا. كما أن الموقف من التصوف ينبغي أن ينبني عند المعترضين على نقد علمي موضوعي ومعرفي، لكن الغالب أن المقاربات السائدة اليوم حول إشكال «التصوف» تبخس من قيمته العلمية والمنهجية بدون التمييز بين مسالكه المختلفة.

المقاربة النقدية الوسطية: تمتاز بعض الاتجاهات النقدية للمشروع الفلسفي للدكتور طه عبد الرحمن -على قلتها- بنوع من الوسطية والموضوعية؛ بحيث إنها لا تبني نقدها على التحيزات الفكرانية/الأيدلوجية بقدر ما ترمي إلى نقد الأسس المنهجية التي انطلق منها طه عبد الرحمن في تأسيس مشروعه الفلسفي، ومن بين رواد هذا الاتجاه نشير إلى المفكر الأردني «فهمي جدعان» الذي اختلف مع طه بخصوص مصدر الأخلاق أهو الدين وحده أم ثمة أصول ومصادر أخرى للمعطى

(١) فيلسوف فى المواجهة، مرجع سابق، ص١٦٩.
(٢) إبراهيم السكران، التأويل الحداثي للتراث: التقنيات والاستمدادات، مركز تفكر للبحوث والدراسات، ط١، ٢٠١٥، ص١٠.

الأخلاقي؟؛ إذ يرى أن تضييق الأخلاق في إطار الدين وحده يفضي إلى الانحصار في حدود ما يسميه «الإنسان الديني» بدل التشوف إلى رؤية دينية إنسانية غايتها الإنسان بإطلاق؛ بحكم أن «كل القرائن تشير إلى أن حشدًا من «القيم الدينية» التي تنطوي عليها الديانات السماوية هي قيم متداولة أيضًا عند كثير من البشر الذين يصرحون بأنهم بلا دين. وإذا كان حقًّا أنه «لا إنسان بلا أخلاق» فإنه ليس حقًّا أنه «لا أخلاق بلا دين» (..)، وليس حقًّا أنه «لا إنسان بغير دين» إلا إذا وسعنا بقدر عظيم جدًّا فهمنا للدين وتجاوزنا ما هو مدرك منه في حدود ديانات الوحي»(١). إذن ففهمي جدعان يدافع عن تعدد مصادر الأخلاق سواء انبثقت من الدين أم من الطبيعة والإرادة أو العقل -كما هو رأي المعتزلة قديمًا في نظريتهم حول التحسين والتقبيح العقليين- أو غير ذلك من المصادر والأصول، بخلاف التصور المنهجي عند طه عبد الرحمن الذي يرى أن الأخلاق مصدرها الدين وحده بطريق مباشر أو غير مباشر.

(١) فهمي جدعان، الأسس الدينية والفلسفية للقيم الأخلاقية، مجلة ألباب، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، الرباط، ع١، ٢٠١٤، ص٢١.

خاتمة:

ختامًا لهذه الورقة العلمية، نسجل الخلاصات الآتية:

مشروع طه عبد الرحمن يقوم على ثنائية النقد وتأسيس البديل.

الإصلاح من منظور طه عبد الرحمن شمولي تتعدد مداخله ومسالكه.

تتعدد الأسس المنهجية للمشروع الإصلاحي عند الدكتور طه عبد الرحمن، ومن بينها: المرجعية الأخلاقية، الحوارية، الآليات المنطقية واللسانية، العرفان الصوفي.

أغلب الاعتراضات حول مشروع طه عبد الرحمن تجزيئية لا تنتقد منهجه بقدر ما تختزل مشروعه ونسقه المعرفي في انتقادات تبسيطية لبعض رؤاه وتصوراته الجزئية.

لائحة المصادر والمراجع:

✸ الكتب:

إبراهيم السكران، التأويل الحداثي للتراث: التقنيات والاستمدادات، مركز تفكر للبحوث والدراسات، ط١، ٢٠١٥.

إبراهيم مشروح، طه عبد الرحمن قراءة في مشروعه الفكري، سلسلة أعلام الفكر والإصلاح في العالم الإسلامي، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ع١٢، ط١، ٢٠٠٩.

طه عبد الرحمن، الحوار أفقًا للفكر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط١، ٢٠١٣.

طه عبد الرحمن، العمل الديني وتجديد العقل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٤، ٢٠٠٩.

طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٢.

طه عبد الرحمن، حوارات من أجل المستقبل، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط١، ٢٠١١.

طه عبد الرحمن، روح الحداثة: المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط٢، ٢٠٠٩.

طه عبد الرحمن، روح الدين من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠١٢.

طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٠.

طه عبد الرحمن، سؤال المنهج في أفق التأسيس لأنموذج فكري جديد، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، جمع وتقديم رضوان مرحوم، بيروت، ط١، ٢٠١٥.

عباس أرحيلة، فيلسوف في المواجهة قراءة في فكر طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠١٣.

عبد الإله بلقزيز، أسئلة الفكر العربي المعاصر، سلسلة المعرفة للجميع، العدد ٢١.

قاسم شعيب، فتنة الحداثة صورة الإسلام لدى الوضعيين العرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠١٣.

✸ الدراسات والمقالات والحوارات:

طه عبد الرحمن، تعقيب على قراءة كتاب الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، مجلة الفرقان، الدار البيضاء ع٥٧، ٢٠٠٧.

الطيب بوعزة، التجديد وسؤال المنهج، مجلة الإحياء، الرابطة المحمدية للعلماء، العدد المزدوج: ٣٩-٤٠، دجنبر ٢٠١٣.

فهمي جدعان، الأسس الدينية والفلسفية للقيم الأخلاقية، مجلة ألباب، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، الرباط، ع١، ٢٠١٤.

محمد البغوري، حوار مع عالم المنطق حمو النقاري حول قضايا التراث والمنهج والتصوف، مجلة أفكار، العدد ١٠، أكتوبر/ نوفمبر ٢٠١٦.

منتصر حمادة، مأسسة أعمال المنجرة والجابري وطه، موقع الدار: www. Aldar.ma